السجين

كنت يوم كذا في محكمة كذا ، فجاء الجند بسجين قروي كالمارد يزعمون انهُ سَبُعٌ من سباع القرى وشيطان من شياطين الليل (١) وقد غلّوا يديهِ بسلسلة من الحديد لعل فقار ظهره اصلب منها

خُلق في هيئة مستصعبة شديدة المراس كالجمرة المتقدة ، ولكن الحياة ما زالت بهِ من نكد الى أنكد منهُ حتى طمرتهُ في رمادها لان لهُ عزةً هو عاثرها يوماً

وخُلق في مزاجهِ وعصبهِ من المادة المشتعلة حتى اذا التهب رأت منهُ الحياة شكلها القوي الجميل في الرجل المشبوب يرسل فروعهُ النارية على ما حولهُ ، فاذا خمد رأى منهُ الموت شكلهُ العنيف الجميل في الجمرة العليلة الذابلة حين تمرُّ أنفاس الهواء عليها

رجل طُوال اذا انتصب والناس وقوف حولهُ رأيتهم معهُ أشبه بهم قعودا عما يُفرّعهم من طولهِ وامتداد قامتهِ ، مجدول الذراعين مشبوح العظام(٢) قد تباعد منكباهُ وترامى بينهما صدر مصفّح كل ثدي من ثدييهِ يجمع قوة اسد

وهو في توثيق جسمهِ وتفرع بعضهِ من بعض كأنهُ شجرة رجال كل فرع منها بطل منكر ، وهو في إحكام تركيبهِ واندماج بعضهِ في بعض كأنهُ تمثال أُفرغ من حديد فتوزعت فيهِ الكتل هنا وهنا ، وكل ما فيهِ من الإجمال والتفصيل انهُ جسم آدمي يمثل للأعين ناموس بقاء الأنسب

وجاؤوا بهِ والناس متقصّفون عليهِ من ازدحامهم يتّقي بعضهم على بعض لينظروا الى الرجل الكامل بل الذي نقص حين كمل ، وهو مُطِلّ عليهم . . . . كأنهُ عبارة مبهمة في صحيفة وكأنهم من حولهِ شروح وتفاسير رُقمت على حاشيتها بخط دقيق . وقف كالشيء الغامض يروعهم بغموضهِ أضعاف ما يعجبهم بروعتهِ وكانوا كالشعاع خيطاً يظهر من خيط وكان كالظلمة نسيجاً من قطعة واحدة . وأحسبهُ لو صاح بهم صيحة البأس لسقطت قلوبهم من علائقها سقوط اوراق الشجر في قاصف من الريح وكأن ما بينهم وبينهُ في الروعة والقوة كالذي تقيسهُ بين الف متر انخسفت تحت

(١) لص فاتك (٢) الشبح عرض العظام

الارض والف متر انبثقت فوقها فالبعد بين طرفيها مضاعف كل منها . وما زالت سنّة الله ان تضاعف الفروق دائماً بين الاشياء التي لا يمكن ان تتفق حتى لا يمكن أبداً ان تتفق

أما أنا فما يعجبني شيء ما تعجبني القوة السليمة في رجل شجاع والضعف السليم في امرأة جميلة، وكما انظر اكثر الوقت بالنظر الساكن المفكّر أحب ان انظر احياناً بمثل البرق المتطاير من عيني أسد مفترس أو الازورار الزائغ في عيني جواد جموح وخير الناس في رأيي من غسله تاريخ اهله بضوء السماء وضوء الشوف معاً

***

وكان الرجل يظهر كأنما هو لا يمسكهُ الحديد الذي يعضّ على يديهِ بل ذنبهُ الذي يعض على قلبهِ ، ولعلهُ قتل ضعيفاً مظلوماً فتحول ضعف القتيل وذلته ومسكنته الى ارواح منتقمة من كبريائهِ تدسُّ في ضميره عنصر الجبن البغيض اليهِ وتربط الروح الميتة الى روحهِ فلا ينزع ظلمتها عن قلبهِ كل ما في النهار من الضوء ولا يجد النور الا في الإقرار والندم فيكن اليهما . وتبيّنتهُ فرأيتهُ ساكناً سكون الاستهزاء كأنهُ على ثقة مما خفي عنهُ تشبه ثقتهُ بما وضح لهُ ، او هو لتعاستهِ أخفق اكثر مما فاز والانسان مهما كثر اخفاقهُ صارت الخيبة في الاعمال هي الخطة التي يبنى عليها ، اولا هذه ولا تلك ولكنها الشجاعة تحمل المطمئن الى غاية الحياة لا يبالي بكل وسائل هذه الغاية المحتومة

وقيل انهُ بعد ان غمس يدهُ في الدم طار على وجهه تلفظه الارض من جهة الى جهة حتى اسلمتهُ يد النقمة الى يد العدل

***

تُرى لو سألنا الوحش حين يفترس انساناً ماذا وقع في نفسك منهُ حتى ثُرتَ بهِ وعدوتَ عليهِ ؟ أكان يقول — لو انطقهُ الله — إلاّ انهُ أبصر في هذا المخلوق وحشاً ماكراً خبيثاً ان يكن في دقة ناب الثعبان فهو في خطر سمّه ، وانهُ لو رأى عليهِ سَمْتَ إنسان وأبصر لهُ نظرة انسان واحسّ منهُ قلب انسان للجأ من وحشيته الى الانسانية التي فيهِ اذ الإنسانية هي حرم الامن الالهي الذي توضع عندهُ كل الاسلحة حتى اسلحة الوحوش ، والانسان هو محرابها الذي تضرع عندهُ كل القوى حتى قوى الطبيعة

كأنما كبرت الانسانية حتى عن أن تكون شيئاً انسانياً فما هي فيمن ترى ممن حشوُ جلودهم ناس وحشو نفوسهم بهائم .... انما الانسانية هناك بعد ان تخرج بنفسك من حدود الشهوات الارضية وترفعها فوق هذه الطبيعة وبعد ان تعاني في شق طبقات النفس الحريصة طبقاً عن طبق مثل الذي يعانيه من يحفر في اصلب أحجار الارض الى غور بعيد . فهناك لا تجد الاشياء بل معانيها واسرارها ، ولا الحوادث بل اسبابها واقدارها ، ولا تيران النفس بل اضواءها وأنوارها، فترجع من ثمّ وفيك الناموس الذي يُنبت الخضرة من العود المغبرّ [1] ، ويخرج النار من الشجر المخضرّ ، ويجعلك لبحر هذا الازل كأنك مكان من البر

***

كان السجين في بهو المحكمة فصعد به الجند الى غرفة « قاضي الاحالة » [2] ووقفوهُ ساعة على مَطلّ بين يديه فناء واسع أسفلَ منهُ تتحول الناس الى هذا الفناء وتحولت معهم وكان البطل يلوح كطرف المئذنة فما هو الا ان ادار عينيه في الناس حتى استقرّ بهما على ناحية فنظرت حيث نظر فاذا داه قلبه وقلب كل من رأى . ست نساء وفتى وطفلان ورضيع فاما واحدة منهن فامهُ واما الثانية فزوجه والباقيات اخواته والفتى فرعُ أبيه [3] ثم الطفلان والرضيع اولادهُ وقد جاؤا يودعونهُ ويستودعونهُ وحسبوا ان ليس بين رجلهم وبين الموت الا هذا القاضي الذي مثل ببابه فطرح الموت ظل فكرم على وجوههم واخذ الرعب مأخذهُ فيهم فاكانوا الا كما يجتمع أهل الميت حول الميت

ورأيت امهُ المفجوعة جالسة لا تحملها رجلاها وعلى صدرها ذلك الرضيع تضمهُ كأنهُ قطعة من قلبها رجعت اليه ، وتشد عليه بيديها شدة الجزع والحنان كما لو كانت تحسبهُ صلة بينها وبين ابنها تنقل هذه الشدة بعينها اليه كما تنقل الكهرباء حركةَ المتحرك ، وقد اطلقت دموعها وفي كل نظرة الى نكبة وحيدها مادة جديدة للبكاء

وهي تحني على قلبها حتى يداني وجهها الارض كأنها شعرت به ينكسر فالت ليلتئم صدع منهُ على صدع ، ثم تعود فتعتدل فيكاد ينشق قلبها فتضغطه بانحناءة اخرى

(١) الجاف من الشتاء (٢) هو القاضي الذي يسمع القضية قبل رأي البراءة تحكم بها والا أحال المجرم على محكمة الجنايات التي تقضي في امره (٣) أخوه وهي كفاية

وهي في كل ذلك مرسلة عينيها تقطر مطراً . وكانت حين تكفكف دمعها [١] وتنحّيه عن خديها يتساقط من فروج أصابعها كأنهُ عدد ايام شقائها

وحسب الرضيع ان هذه الحركة هدهدة [٢] من امهِ لينام فنام هنيئاً على صدرها وأدفأهُ غليان هذا الصدر فضاعف لذة احلامهِ . وانما هو طفل سماوي لا يزال مسُّ يد الله على جلدهِ الرطب فلو زفرت حولهُ جهنم فحرقتهُ لكفتتهُ نسمة من نسمات الجنة ، ويا سعادة من يستطيع بطبيعتهِ ان ينقطع من وسائل نفسه الى وسائل الله

واما زوجة الرجل وهي شابة جزلة الخلق ناضرة الصبا تركها الحزن كالمرآة المهملة تدل أنوار بريقها على مواضع الصدأ منها — فكانت واقفة تحمل على رأسها بُرمةً اعدت فيها ما تعرف ان سيدها يشتهيهِ من طعامهِ ، كأنها تريد ان تحمل من هذا الطعام الذي يحبهُ رسالةً من الحب بين نفسها ونفسهِ ترسلها اليها في سجنهِ . ولما استقرت عينه عليها أرسلت كل عواطفها في مجاري دمعها ، وقد ايقنت انهُ قُطع بها دون عمادها وزوجها ووالد ابنها وكنزها الذهبي الذي لا تملك غيره فكانت تبكي لكل معنى من هذه المعاني بكاء بعينهِ ، وتبكي على قدر وفائها الذي لا حدَّ لهُ وحبها الذي لا صبر معهُ ومصيبتها التي لا سبب فيها من أسباب العزاء ، وكل نظراتها كانت تقول لزوجها لك ما أبكي [٣]

وأحاط بها اخواته الاربع صفر الوجوه ساهمات الخدود ذابلات الاعين كأنما تدلَّين الى الارض من مشنقة . والبنت قطعة من امها ولكنها في الحزن على ابيها او أخيها بعدة امهات ، فهل تَراها لا تستوفي في بطن امها الا نصف حياتها كأنما في الدنيا . . . . ويبقى النصف الآخر في أخيها فان مرض خامرها نصف الداء وان مات وقع عليها نصف الموت . ولا يكون حزنها عليهِ الا هدَّة في حياتها لا يمكن ان تبنى ؟

اما اخو السجين فوقف ناحية عن النساء وجعل يبكي ويعصر عينيهِ ولا ادرى ان كانت الفطرة هي التي ابعدتهُ عنهن حتى لا يشبههن بوجه من الشبه ولو كان دقيقاً كهذه الخيوط من الدمع . ام هو انتحى جانباً كيلا تتصل بهِ عدوى الضعف وليستطيع ان يبكي على أعين الرجال بكاء رجل في دمعهِ شيء من القوة . أم هو انتبذ

(١) التكفكف اخذ الدمع من الخد بالاصابع (٢) هدهدت الام ابنها حركته لينام
(٣) اي ابكي لك وحدك لا لخاصة نفسي

مكانه ليتكلم مع آلامهِ فان الآلام تتكلم ولكن باحساسنا وكان لهُ مع أوجاع قلبهِ حديث طويل ؟

واما الولدان فربض احدهما في الارض ووقف الآخر لانهُ اكبر منهُ قليلا وكلاهما ضامر الوجه متقبّض منكسر من هول ما يرى . وكانت عيونهما الحائرة تدل على انهما بإزاء حالة غير مفهومة فابوهما حي لم يمت وعيونهما مكتحلة بمينيه وليس بينهما وبينهُ الا ارتفاع شجرة . . . . فلمَ لا يصلان اليهِ او يصل اليهما وعلام هذه المناحة ولا ميت وفيم هذا الجمع ولا معركة ؟ اخذا يدرسان الدنيا كلها في معضلتها الاولى من حيث لا يفهمان شيئاً وبدأ العدل الانساني الرحيم يخمش صدرهما ليعلما ذات يوم معنى الظلم الذي يكون مرة باعثاً على العدل ويكون مرة هو اياه

ألا ويحك ايتها الانسانية ظالمة او مظلومة ان امامك من هذين الطفلين الموتورين آلتي تصوير قد نقلتا هذه الصورة وستحفظانها الى يوم ما . . . . . .

صورة بشعة على تلوينها اذ لا سواد فيها الا من الخطوط ولا بياض الا من الدموع ولا صفرة الا من الوجوه ولا حمرة الا من لهب القلب . وسيمضي كل شيء لسبيله فيُنْسَى ولا تنسى لانها مادة علمية مصورة كرسم تعليمي في جغرافيا الجريمة

هي اليوم صورة طفل فهي للحفظ وغداً صورة شاب فهي للعلم وبعد غد صورة رجل فهي . . . للعمل

***

كان السجين كالميت تراهُ تحت اعين أهله وهو في عالم آخر، وبين ايديهم وكأنهُ حسرة بعد أمل ضاع . وكان كلامهم تسمعهُ أذنيه ولكنهُ من معنى ما يحب على بعد ما بينهُ وبين المستحيل . ابتلاهُ الله بالجريمة ثم ابتلاهُ بالقصاص ثم عم عليهما بمصيبة في مقدار عذابهما معاً وهي رؤية اهله جميعاً في حالة لا يملك فيها قدرة ولا صبراً

أنما يمسك الانسان قوتان : قدرة يمضي بها فيدرك فيطمئن او صبر يقعد به فيعجز فيطمئن . ولكنهُ متى امتُحن بشيء لا يقدر عليهِ وهو مع ذلك لا يصبر عنهُ فقد وضعه الله من محنتهِ في حالة لا انسانية ولا وحشية ولا دونهما ولا فوقهما اذ يسلط عليهِ كل القوى التي في داخله تدفعه بأشد العنف الى القوى المحيطة بهِ ، ويُغرى المحيطة بهِ ترميه الى التي في داخلهِ فما ان يزال مرتطماً بين هذه وتلك وكأنهُ لشدة وقعها يحطم محطماً بين مطرقتين

وهذه البلية من العذاب لا تتفق الا في اشد ما يكره الانسان حين لا يجد منهُ مفرّاً ولا يطيق عليهِ مقرّاً ، وفي اشد ما يحب حين لا يقدر الى حد اليأس ولا يصبر الى حد الجنون . واحسب ما في الارض منتحر قطّ ازهق روحهُ — ان لم يكن مجنوناً — الا وهو في احدى هاتين الحالتين . فان وجدت من يثبّتهُ الله على حالة منها وجدتهُ كالبقية من الحريق ان لم تكن احترقت وذهبت فقد احترقت وبقيت

***

اجرم السجين فأخذ بذنبهِ فا ذنوب هؤلاء جميعاً ؟ أهي احدى الحقائق العليا الغامضة التي من اجل غموضها واستبهام حكمها يقول الحائرون كل شيء هو كل شيء ويقول المنكرون لا شيء في كل شيء ، ويقول المؤمنون كل شيء فيهِ شيء

ام هي الحقيقة السهلة الواضحة من كل جهاتها وان اصبح الناس لا يفهمونها اذ لا تحتاج الى فهمهم موكّلون بما خفي ودق كهؤلاء العلماء والفلاسفة الذين يقطعون العمر في دقيق المباحث وعويص التراكيب ثم لا ينتهون من نتائجها الاّ الى النواميس المكشوفة انكشاف النور لكل ذي عين تبصر . أهي الحقيقة السهلة التي تجزأت من اجلها آية الله فيقول المنكرون لا علم ، ويقول الحائرون لا علم لنا ، ويقول المؤمنون لا علم لنا الاّ ما علّمتنا

ألا أيها القلب الانساني المعجز . ان ايامك كلها مضيٌّ في سبيل الموت الاول كما هي مضي في سبيل الحياة الاخرى فأنت تسير في طريقين معاً وهذه هي معجزتك التي لا تفهم

ونحن من ظلام الدنيا ومن بحثنا عن الحكمة الالهية الصريحة بوسائلنا الانسانية العاجزة كالذي يبغي ان تطلع عليهِ الشمس في ليلهِ ويبغي لهُ مع ذلك ظلام الليل . نريد مستحيلين لا مستحيلا واحداً ، وهذا هو عقلنا الذي لا يعقل

لو اراد الله بك خيراً ايها القلب المسكين لما جعل شقاءك يربى فيك تربية كما تربى أنت في الانسان وكما يربى الانسان في الحياة . فالحب والرحمة والشفقة والصداقة وكل المعاني التي هي روابط الانسانية في اشباكها ، هذه كلها هي وسائل مسرتك في حالة ، وهي باعيانها أسباب عذابك في حالة أخرى

جذور استسرّ بها الغيب وفي ايدينا فروعها واوراقها وثمراتها . تلك هي شجرة الحياة قلنا حلوها ومرها وما يفيء من ظلها وما ينحسر ، ولنشذّب منها فتنمو وتزيد

وتغير من اشكالها وتلوي وتكسر من فروعها ما شئنا وتترك من ثمرها ما ينضج الى ان ينضج أو تتناوله فجاً لا يساغ ولا يطعم . أما ان نجعل مرها حلواً ونرسل المادة الحلوة بايدينا في جذور الفروع المرة التي تؤتى ثمرها عللاً ومصائب ونكبات وموتاً فهذا مالا سبيل اليه ولا يغني فيه غناء ولا تبلغ منهُ حيلة الا اذا استطعنا ان نطفىء الفرع الاحمر من النار فيتحول في ايدينا الشيء آخر غير الفرع الاسود من الفحم

تأتي النعمة فتدني الاقدار من يدك فرع الثمر الحلو وانت لا ترى جذره ولا تملكهُ . ثم تتحول فاذا يدك على فرع الثمر المر وانت كذلك لا ترى ولا تملك ، ألا فاعلم ان الايمان هو الثقة بان الفرعين كليهما يصلانك بالله ، فالحلو فرع عبادته بالحمد والشكر وهو الاحلى عندك حين تذوقهُ بالحس ، والمر فرع عبادته بالصبر والرضا وهو الاحلى حين تذوقهُ بالروح

القلب الانساني ميدان تقتتل فيه القوى الارضية والسماوية فلا بد في النصر والانخذال جميعاً من الدم يذهب كلهُ او بعضهُ والجراح تبرأ او لا تبرأ والآلام تنسى او لا تنسى

***

وجاءت حافلة السجن فركبها السجين ومضت تجرها البغال طائعة منقادة كما تنقاد اذا جرت مركبة ملك وذهبت وما تحفل بشيء من الدنيا وسياستها وآدابها وأحكامها ما تحفل بهذا السوط الدقيق المسلط على ظهورها . . . . . اما اهل الرجل فتهالكوا وراء العربة ، فالشاب يخطف في عدوه خطفاً منكراً كأن قربهُ منها يوصّل بعض انفاس الحرية الى اخيه، والنسوة يتهالكن في جريهن وكلما ابعدت الحافلة علا صراخهن ليبلغ السجين منهن شيء ما ، أما الطفلان وجدتهما فوقفوا من الضعف كأنما وقفت قلوبهم ولكن نظرات الجدة ارتمت الى العربة فلما غابت عنها ارتمت الى السماء

واما الرضيع ، هذا اليتيم في حياة ابيه ، هذا المسكين الذي ابتدأ تاريخهُ بجريمة لا يدَ لهُ فيها ، هذا الضعيف الذي لا يزال جلدهُ أرقّ ديباجة من ورق الزهر ومع ذلك تدق فيه منذ الآن مسامير الفقر واليتم والضياع . اما الرضيع اليتيم المسكين الضعيف فكان وحدهُ بين هذه المصائب دليلاً على الامل الانساني في رحمة الله اذ فتح عينيه للنور وابتسم

مصطفى صادق الرافعي